محاضرا ت في مقياس الشعر في بلاد الشام الأستاذة بولحية

تخصص ادب حديث ومعاصر السنة اولى ماستر

المحاضرة 1/ مدخل آلى سياقات الشعر في بلاد الشام:

الأوضاع الاجتماعية: عندما انتهت سيطرة العثمانيين التي دامت أكثر من أربعة قرون على بلاد الشام، وأعقبتها سيطرة جديدة من الاستعمار الأوربي، كانت بلاد الشام تغرق في أجواء اجتماعية قاتمة ومتردية يسودها الفقر والمرض والبؤس، الأمية والجهل، وأساليب الاضطهاد والإرهاب....الخ.

غير أنه منذ القرن 19 كانت قد علت في (سورية ولبنان) أصوات حرة لبعض المفكرين، والحركات الثورية التي تدعو إلى النهضة الفكرية والاجتماعية، ترافقت في الوقت نفسه مع تفتح الوعي القومي.

وقد كانت بلاد الشام تربة مهيأة للإصلاح والتحرر والتغيير، وذلك بفعل عدة عوامل منها: حركة التعليم، البعثات التبشيرية، نشوء المطابع، تشكيل الجمعيات الأدبية والعلمية في منتصف ق 19.

ومنذ بداية ق 20 انجبت سوريا عددا من الكتاب والمفكرين والادباء والشعراء، وأنشئ في دمشق سنة 1919 أول مجمع لغوي في الوطن العربي (المجمع العلمي العربي)، كما أنشئت جامعة دمشق بأسامها معهدي الطب والحقوق ومدرسة الآداب العليا، كما افتتحت دار الكتب الظاهرية ودار الآثار، ونتج عن كل ذلك جمع الكتب والمخطوطات وحركة التأليف والطباعة...الخ.

ومع ذلك ظل التخلف الاجتماعي المتمثل في الأمية والجهل منتشرا، إضافة إلى التكاسل والاتكالية وعدم البحث عن عمل أو تعلم صنعة، مما يؤدي إلى التسول أو تلقي المعونة من الآخرين.

كما كان للغزو الفرنسي تأثير على البلاد، لما حمله من مظاهر الحياة الغربية (الحداثة) التي عمت المدن، حيث شملت الأبنية والأثاث ووسائل الإنارة والنقل واللباس والمدارس...الخ، وان كانت بعضها غير جديدة على الطبقات الغنية، أما أكثرية الفئات الفقيرة فلم يستخدموا الجديد لذا وقفوا منها موقفا سلبيا لأنها تتنافى مع البساطة في

العيش الذي ألفوه، كما أنها تتناقض مع قيمهم المتوارثة، وتخالف الشرع والعادات والتقاليد.

وقد صور الشعراء في الشام كل ذلك بحسهم ومشاعرهم، معبرين عن الوجدان الجمعي للطبقات الفقيرة، ومن هؤلاء الشاعر أديب الجابي، علي دياب، ميشيل كحلا، سلامة الأغواني، كما تحدثوا عن المظاهر السلبية المتفشية في المجتمع مثل النفاق، الرشوة، الحسد، الكذب، التسويف، القمار.

الأوضاع السياسية: منذ إعلان الشريف حسين ثورته على الأتراك سنة 1916، أعلن نفسه ملكا على العرب بعد أن سيطرت قواته على الحجاز، بدأت بريطانيا بالتنسيق معه في أعمالها الحربية، واستكمال مخططها لتنفيذ أهدافها المرسومة، وتحقيق مطامعها في السيطرة مع فرنسا على البلاد العربية التي كانت تخضع للإمبراطورية العثمانية، وقد تكشفت هذه المطامع بالاطلاع على اتفاقية سايكس بيكو التي وُقعت سنة 1916 بين بريطانيا وفرنسا لتقسيم مناطق النفود بينهما (سوريا، العراق)، وبتصريح بلفور (وزير خارجية بريطانيا) عام 1917 بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، على الرغم من التأكيدات والوعود الكاذبة التي كانوا يقولونها في مفاوضاتهم مع الشريف حسين، وفيما بعد مع ابنه الأمير فيصل من اجل حصول العرب على حريتهم واستقلالهم وسيادتهم.

بعد خيبات الأمل المتكررة التي لاقاها الأمير فيصل من بريطانيا وفرنسا في مؤتمر الصلح، وإخفاقه في مفاوضاته معهما، تم تأسيس مؤتمر ليدرس فيه استقلال سوريا، لتتوالى بعده الأحداث والاتفاقيات بقيادة زعماء آخرين.

تعرض أحد الشعراء الشعبيين في الشام "علي دياب" لهذه المراحل التي مرت بها سوريا، والتي تتمثل أولا في السيطرة العثمانية، ثم العهد العربي وملكية فيصل، وبعدها الاستعمار الغربي (الانتداب البريطاني والفرنسي)، فصور بشكل رمزي وبأسلوب قصصي الزيجات التي كنى بها هذه المراحل في زجلية مطولة بعنوان (حظنا في الزواج) عام 1930.

كما عبر الشعراء عن السخرية من المعاهدات والوعود التي أغدقها الحلفاء للعرب، لأنها نصب واحتيال، يقول الشاعر عبد الغني الشيخ:

كل العرب ساعدوهم وكسروا الأعداء

ولما انتصروا استضعفونا و ورجونا الجفاء

وأخذوا الشريف ونفوه والقلب احترق

وصفيت المعاهدة بايدو قصاصة ورق

تحدثوا أيضا عن كيفية تغيير موقف السياسي من حال الى حال حين يستلم منصبا، فيبتعد عن الأصدقاء وينأ عن حياة البساطة التي كان يعيشها، وأيضا عن ما يحتويه المناصب الحكومية من إغراء، وممن تعرض للهجاء والسخط والزجل كان الشيخ تاج، كما لم يسلم من مجلة (المضحك المبكي) الذي عرضته برسم كاريكاتوري.

ومن جانب آخر أشادوا بالزعماء الوطنيين ومواقفهم المشرفة من أمثال: هاشم الأتاسي، فخري البارودي، عبد الرحمن الشهبندر.

الأوضاع الاقتصادية: منذ أن احكم الانتداب الفرنسي سيطرته، ازدادت الأحوال المتردية في البلاد من جميع النواحي، خاصة الاقتصادية، لذا ظلت الزراعة الركن الأساس في الحياة، وعبئا ثقيلا على المزارعين الذين أثقلتهم الديون والقروض، الى جانب ما يقوم به العساكر وهم يجوبون القرى ويجمعون الأموال ويبيعون الحيوانات ويحجزون العلف والمؤونة بلا رحمة، وعجزهم عن سداد من استدنوه من الملاكين الكبار، فينتي بهم الأمر إلى خسارة أرضهم.

أما الصناعة فقد اقتصرت على المنتج الزراعي وبعض المواد الأجنبية، كما تدنت العملة الورقية وساءت الأحوال المعيشية إلى حد الجوع، وأصبح الفقراء يشتهون الرغيف، يقول "علي أديب":

كنا نشبع خبز الحاف هلأ عايشين عالريحة

نظم الشعراء أيضا شعرا يدعوا الى مقاطعة البضائع الأجنبية وتشجيع المنتوجات وقيمة العمل، وأثر العامل في بناء الوطن، منهم "علي دياب، فخري البارودي، حنا أكوب".

المحاضرة 2/ الشعر التقليدي الاحيائي:

إن مدرسة الإحياء والبعث، أو مدرسة النهضة الشعرية، أو الإتباعية، هي نتاج عصر النهضة العربية وثمرة من ثمارها، ومرآة يمكن في ضوئها قراءة الواقع العربي في تلك الفترة من جوانبه الاجتماعية والنفسية والثقافية، ومعرفة التصور السائد الذي يربط بين تحقق النهضة والعودة إلى التراث وإحيائه، لذا كانت لأحداث العصر أثرها في المعجم الرمزي الإحيائي، والموقف النفسي للشاعر من الحياة.

يعد الشعر الإحيائي مدرسة كلاسيكية جديدة، ظهرت في عصر النهضة الأدبية العربية في أواخر ق 19، وامتداد إلى الربع الأول من ق 20.

إن مفاهيم (الإحياء، البعث، الاتباع) تجسد حركتها وفعلها في نحت علاقة تفاعلية إيجابية مع التراث الشعري العربي، فاعتمدت على المحاكاة؛ محاكاة منوال أغراض الشعر العربي القديم ومضامينه، والمحافظة على الوزن ونظام القافية الواحدة والتمسك باعتماد البحور الشعرية الخليلية.

نقاط التأثر:

يتجلى التأثير القوي للشعر العربي القديم في أشعار المدرسة الإحيائية في مستويات عدة: تشمل المعجم والبلاغة والإيقاع والموضوع ومستوى مقروئيتها وتأثيرها في المتلقي، فمثلا على مستوى المعجم كانوا يصفون الأطلال والابل وتواتر ظواهر الاستعارة والتشبيه والنزوع الى الزخرف اللفظي، ويؤثرون شعر الأمراء والفرسان، ويميلون إلى شعر الفخر والبطولة والحكمة، كما عاشوا بمزاج القدماء، كما عمدوا إلى تجارب الشعراء القدامى معايشة فروسيتهم واستدعاء ذواتهم الشعرية والتلبس بها من جديد، نظرا لما يرمزون اليه من قوة الحضارة العربية.

ومن أهم ما اشتهر به اعلام هذه المدرسة هو انتاجهم للمعارضات الشعرية، التي تمثل استدعاء واحياء لتجارب الشعراء القدامى خاصة شعراء العصر العباسي، وتقتضي المعارضة (أن ينظم قصيدة في موضوع معين على بحر من البحور وقافية من القوافي، فيعجب بها شاعر آخر بسبب من الصياغة المتميزة أو الإيقاع اللافت أو المعاني الظاهرة او الصورة المعبرة، فينظم على بحرها وقافيتها وموضوعها ملتزما التزاما تاما أو محدودا حريصا على أن يضاهي الشاعر المعارض إن لم يتوفق عليه) لذا شكلت خاصية أساسية وسمة من سماتها الكبرى.

أسباب المحاكاة: ارتبط فعل البعث الشعري بأهداف محددة ، فالى جانب تفسير الميل الى الشعر القدامى بما يرمز اليه هذا الشعر من مرحلة زمنية قديمة صاحبها مجد سياسي وحضاري، فان هناك واقعا تاريخيا وثقافيا، اسهم الى حد كبير في تحديد حجم ظاهرتي المحاكاة والمحافظة، ويمكن ضبط هذه الأسباب في النقاط التالية:

-تلقي رواد المدرسة تنشئة ثقافية شعرية أدبية يهيمن عليها التراث الادبي القديم، لذا كانت من محددات انتاجهم الشعري؛ فالقصيدة نتاج ثقافة شاعرها وتكوينه.

-محاولة معالجة الضعف الذي أصاب اللغة العربية ومواجهة التحديات المهددة لها، وعلى رأسها سياسة التتريك التي نادت باعتماد اللهجات العامية، وأيضا ضعف الثقافة الشعبية السائدة آنذاك، وهو ما استوجب اعتماد معجم بلاغي يعيد الى اللغة العربية

قوتها، لذا كان تركيزهم المبالغ فيه على الصياغة والاكثار من المحسنات اللفظية والافراط في تزويق لغة القصيدة واقتباس استعارات وصور شعرية قديمة.

-هناك ارتباط وثيق بين مشروع مدرسة الاحياء والتراث الذي يهدف الى إيقاظ الشعور القومي والتركيز على شحنه وتغذيته، فمن مقومات الشعور القومي اعلاء شأن اللغة العربية كلغة قومية والاتصال بالتراث الثقافي العربي المرتبط بدوره باللغة التي كانت حاضنة له ومعبرة عنه.

خصائص الشعر الاحيائي:

-حافظ شعراء المدرسة على بناء القصيدة القديمة حيث تقيدوا بالبحور الشعرية المعروفة، والتزموا القافية الواحدة في كل قصيدة.

-ترسموا خطى القدماء فيما نظموه من الأغراض الشعرية: مدح، رثاء، غزل...، وتعددت في القصيدة الواحدة، فنجد فيها الوصف ، الغزل، المدح، الحكمة، وينتقلون من غرض لاخر كما يفعل القدامى، كما جددوا فيها فمثلا في الرثاء اهتم الشاعر الاحيائي بالقضايا التي كان نصيرا لها في حياته السياسية، اما الهجاء فتحول من هجاء شخص الى هجاء ذي طابع سياسي، اما المدح فانتقل الى الثناء على الشعب.

-استخدموا أغراض شعرية جديدة كالشعر الوطني والاجتماعي والقصص المسرحي...الخ.

نسجوا على منوال القدامى في اختيار الفاظهم، فجاءت فصيحة، جزلة، وتمسكوا باحكام الصياغة والأساليب البلاغية الشائعة في الشعر القديم.

-عارض كثير منهم روائع الشعر العربي القديم، وقلدوها بقصائد مماثلو وزنا وقافية أو موضوعا، وأصبحت المعارضات سمة العصر، مع اختلاف اغراضهم في المعارضة، فقد تكون لترويض القول، واستكمال ثقافتهم الفنية والتمكن من الأداة التعربيرية، او الاستفادة من الأوائل الشعري، او تكون فنا وابداعا لما تضمنته القصيدة التراثية من دلالة تاريخية او حضارية.

-استخدموا التناص حين ادخلوا في قصائدهم الحديثة القران والاحاديث والامثال، ويعد من ابرز الطرق لربط القديم بالحديث، وانشاء تفاعل وامتداد ثقافي بينهما.

خصائص الموسيقى في الشعر التقليدي:

تؤثر الموسيقى تأثيرا فعالا في بلورة التشكيل الجمالي للنص الشعري، حيث تتضافر الأصوات اللغوية، وفق نظام خاص في النسق النصي لتحدث ايقاعا يعبر عن

مختزنات الحالة الشعورية، ويكون محببا الى النفس الإنسانية، التي تميل الى كل ما يثير فيها إحساسا.

يرمي الإيقاع الى التواتر المتتابع بين حالتي الصمت والصوت، النور والظلام، الحركة والسكون، القوة والضعف، الإسراع والابطاء...، وقد ارجعه "كولردج" في ق 19 (الى عاملين أولهما التوتر الناشئ عن تكرار وحدة موسيقية معينة فيعمل على تسويق المتلقي، وثانيهما المفاجأة أو خيبة الظن التي تنشأ عن النغمة غير المتوقعة، والتي تولد الدهشة لدى القارئ) وأيضا التمايز والاختلاف داخل البنية الواحدة (الإيقاع الداخلي النابع من صميم النص)، وبالتالي يستثمر الإيقاع هذه العوامل، وكلما كان على درجة عالية من المهارة والوعي، كانت له قدرة أكبر على التعبير والتأثير والتصوير.

أنواع موسيقى الشعر:

1-الموسيقى الخارجية: وهو ما يمس الناحية الشكلية من الشعر، وتتمثل في الوزن والقافية.

*الوزن: وهو بمثابة الإطار الفني الذي يحيط بالشعر احاطة شاملة، وله أهمية خاصة للإبانة عما يجيش في صدر الشاعر من مشاعر وعواطف وأحاسيس، وينقسم بدوره الى قسمين:

-الاوزان المواجة الحادة، التي تتناوب فيها التفعيلات بانتظام، ذات الموسيقى الفخمة، تتلاءم والمضامين الوجدانية والحماسية مثل (البحر الطويل، الكامل، البسيط).

-الأوزان التيارية الهادئة، التي تتكون من تفعيلات متنوعة تتناسب والمضامين الشجية كرثاء الأحبة مثل (بحر الرمل).

*القافية: كلما احتوت على نسبة اكبر من التشابه بين حروفها وحركاتها ازداد وقعها على النفس شريطة ان تكون ذات صلة وثيقة بالمعنى.

2-الموسيقى الداخلية: تتولد بفضل انسجام الحروف والكلمات والجمل والعبارات، وهو ما يمس جوهر ومضمون الشعر، تتمثل في الجناس، السجع، التقطيع الصوتي (تجزئة الوزن إلى مواقف، أو مواضع يسكت فيها اللسان ويستريح في أثناء الأداء الالقائي، مثل:

(مُتلفِّعٌ بحريرهِ متضمِّخٌ بعبيره مترنحٌ بفُتورِه)

التكرار (تكرار الحروف والكلمات) ويكون لهدف، التصريع (القافية نفسها في الصدر والعجز)، رد العجز على الصدر (بداية الكلمة أو آخرها في الصدر تكون نفسها في نهاية العجز).